تمهيد الطريق:

äGôµÑe äÉjƒ°ùf äÉÑJÉc

فرّق الغرب، على نقيض العالم العربي، تفريقاً واضحاً بين الصحافي والكاتب. فالعديد من الصحف والمجلات العربية اسسها كتاب ومربّون اعتبروا الصحافة امتداداً لأنواع اخرى من الكتابة، وشعروا ان لهم رسالة اجتماعية وسياسية عليهم ان يؤدوها. ونستطيع اعتبارهم اسلاف التجمعات الرسمية التي بدأت مع اتحاد النساء المصريات عام ١٩٢٧، واطلقت الحركة النسائية في المنطقة العربية.

¿ÉÑ©°T áæ«ãH

أستاذة الادب الانكليزي في جامعة دمشق ورئيسة مكتب الإعلام الاجنبي في الوزارة السورية للشؤون الخارجية. لها كتاب Both Right and Left Handed London: the Women's Press, 1988. (وكتاب «الشعر والسياسة» (دمشق، دار كلاس، ١٩٩٣). هذه المقالة مبنية على تلك التي نشرت في Ms. Magazine, May/June 1993 وقد سمحت الكاتبة بإعادة نشرها هنا.

بين ١٨٩٢ و ١٩٤٠ حصرت الكاتبات العربيات جهودهن في طباعة صحفهن الخاصة التي نشرن فيها الشعر والقصة والنقد، بالاضافة إلى مقالات تهدف الى تعزيز دور النساء في المجتمع. ولذلك لا يمكن تقييم الادب النسائي العربي (أو أي أدب نسائي آخر) من غير تقييم الصحافة النسائية العربية، والتي كانت خلال نصف قرن منبر الكاتبات العربيات الرئيسي. واضح من رسائل القراء والمراسلين أن الصحافة النسائية شكّلت خلال تلك الفترة عنصراً أساسياً في الصحافة العربية. إلا أنه لم يُعترف بعد بالدور الهام الذي لعبته تلك الصحف خلال النصف الاول من هذا القرن. لسوء الحظ لا وجود في العالم العربي لسجلات دقيقة لهذا التراث الغني، ولم تظهر أية دراسات حوله. أنه يستحق أن يعرّف به القراء العرب والغربيون على السواء.

في ١٨٩٢ أسست السورية هند نوفل صحيفتها الأولى «الفتاة» في الاسكندرية، مصر، ممهّدة بذلك لفترة ازدهار: قبل الحرب العالمية الأولى كان هناك ما يزيد على ٢٥ صحيفة نسائية عربية تملكها وتحررها وتصدرها نساء. وقد بيّنت هؤلاء المحررات في كل افتتاحياتهن أن النساء شكلن أولى اهتماماتهن: أدب النساء، حقوق النساء ومستقبل النساء. في افتتاحية عدد «الفتاة» الأول (٢٠تشرين الثاني/نوفمبر، ١٨٩٢) كتبت هند نوفل: «الفتاة هي الصحيفة النسائية الوحيدة في الشرق؛ إنها تعبر عن أفكار النساء، تكشف عن كوامن عقولهن، تناضل من أجل حقوقهن، تبحث عن أدبهن وعلومهن، وتفتخر بنشر نتاج اقلامهن.» كذلك حضّ محرّرو صحف أخرى النساء «اللواتي يهتممن بمستقبل جنسهن وتحسينه على الكتابة كي تُقرأ اعمالهن وتصبح مع الوقت جزءاً من التراث الادبي.» ظهرت هذه الصحف في القاهرة وبيروت ودمشق، وأقل من ذلك، في بغداد. أظهرت محرراتها معرفة عميقة بالسياسة، وإحساساً باسباب المشكلات الاجتماعية، ووعياً اقتصادياً يعوَّل عليه، ومهارات مهنية محنكة في مجالات النشر والتسويق وإمكانية النجاح المالي. على سبيل المثال نذكر منها: أنيس الجليس التي كانت ملك الكساندرة افرينو وحررت فيها ونشرتها (الاسكندرية، ١٨٩٨)؛ شجرة الدرّ لأنيسة عطا الله (مصر ١٩٠١)؛ السعادة لروجينا عوض (مصر، ١٩٠٢)؛ العروس لماري عجمي (دمشق، ١٩١٠)؛ الخدر لعفيفة صعب (لبنان، ١٩١٢)؛ فتاة النيل لسارة المحية (القاهرة، ١٩١٣)؛ وفتاة لبنان لسليمة ابو راشد (لبنان، ١٩١٤).

مع ان هذه الصحف غطت باستمرار تجارب النساء الغربيات وإنجازاتهن، إلا أنها أكدت جميعاً ضرورة التعلم من الحركات النسائية في الغرب ولكن من غير الاستغناء عما هو إيجابي في الثقافة العربية والاسلام. (فيما يتعلق بالنساء والاسلام كثيراً ما أكدت الدراسات أن ليس في القرآن ما يجعل من «الحجاب» واجباً دينياً، وان تعدد الزوجات مناقض لروح ما ورد في القرآن).

دفق من المقالات التي ظهرت في عدد من هذه الصحف بيّنت الصلة بين بدء الحركات السياسية المطالبة بالاستقلال وظهور الوعي النسوي في العالم العربي، مؤكدة أن أي بلد لا يمكن أن يكون حراً حقاً ما دامت نساؤه مكبلات (وهي صلة هامة أغفلت تأكيده عربيات الجيل اللاحق). ولم تبيّن النساء وحدهن ان القضايا النسائية هي قضايا وطنية، وانما اكّد ذلك ايضاً رجال مميّزون امثال عادل جميل بيهاني وجورج نقولا باز. اظهرت الكاتبات اهتماماً حقيقياً بالشؤون الوطنية والقضايا السياسية، ولم يبيّنّ قطّ انهن يعشن على هامش الحياة السياسية. يكفي أن نذكر ان اتحاد النساء العربيات، بايمانه الواضح بالوحدة العربية، تأسس عام ١٩٢٨، ١٧ سنة قبل جامعة الدول العربية.

بل أن بعض الوطنيين بدأوا يرون في الكتابات النسائية من هذه الفترة مفتاحاً للاصلاح الوطني. كتب المحامي الوطني الشهير حبيب فارس الى فتاة لبنان في ١٩١٤: «يمكن تحقيق الاصلاح الوطني حين تقرر الحكومة دعم الكاتبات، فهؤلاء أكثر الناس أهلية لزرع بذور المبادئ العادلة والمنصفة. ان كتابات النساء في الصحف والمجلات أقدر من أية قوة أخرى على التأثير والإكراه لتحقيق الإصلاح.»

إن العديد من الكاتبات تناولن قضايا نسائية لا نزال، بعد حوالي القرن، نحاول حلها. كتبتب لبيبة شمتين في ١٨٩٨: «لا أرى كيف يمكن أن تسبب كاتبة اوشاعرة ضرراً لزوجها واولادها. في الحقيقة، أرى العكس تماماً: سينعكس علمها وتربيتها ايجابياً على أسرتها وأولادها... لم يُعتبر الفن أو الابداع الذكوريان مصيبة بالنسبة للعائلة، أو حائلاً دون ما يمكن ان يمنحه أب لاولاده من حب وعناية . الرجل الذي يرى في امرأة متعلمة منافسة له رجل غير كفء؛ والذي يعتبر معرفته كافية لئيم؛ والذي يعتقد أن ابداع المرأة يضر به او بها هو رجل جاهل.»

كذلك ظهرت باستمرار مقالات عن مكانة نساء اوروبيات وأميركيات وصينيات وأندونيسيات وهنديات، بالاضافة الى سير نساء عظيمات، من الاوروبيات والعربيات على السواء. ما كتب عن غير العربيات لم ينمّ على الاطلاق عن أي تحامل على الغربيات أو أساليب عيشهن. ان معظم هذه المقالات أكدت ضرورة الاستفادة من تجربة النساء الاخريات من غير أن يُنسى تاريخ العرب وثقافتهم ودينهم. فضلاً عن ذلك نشرت الصحف دراسات اجتماعية دقيقة عن وضع القرويات والموظفات والمتعلمات وربات البيوت. وكثيراً ما اشارت هذه الدراسات الى سبب العلل الاجتماعية التي أبقت النساء على هامش الحياة، وطالبت بإصلاح حقيقي. عدد لا بأس به من هذه المقالات اكدت اننا اذا دققنا البحث في الفوارق بين الجنسين ستكون النتائج في صالح النساء. ذهبت الى ان النساء يفقن الرجال في الحساسية والحنان والعطف وعمق التفكير لانهن مصدر الحياة وأصل كل ما له قيمة فيها. إلا أن معظم المقالات أكدت أن الهدف ليس اثبات تفوق النساء على الرجال (مقترفة بذلك الخطأ نفسه الذي اقترفه الرجال خلال قرون)؛ بل إن هذه الحجج ارادت أن تثبت أن ما أسماه الآخرون ضعفاً في شخصية النساء هو، في الواقع، قوة حقيقية وأساس متين للبنية الاجتماعية.

ثم ان الصحف نقلت ايضاً أخبار الجمعيات النسائية التي بدأت تظهر في كل انحاء العالم العربي، واخبار مؤتمرات نسائية عالمية. لم تبقَ معلومات كثيرة عن هذه الجمعيات والنشاطات، وتاريخها الحقيقي لا يزال بحاجة الى التدوين. الا اننا لا نستطيع ان نشك في ان الصلة وثيقة بين الكتابة النسائية وبدايات التنظيم النسائي. ولا تزال بحاجة الى البحث معرفة ما اذا كانت النساء أنفسهن مشتركات في النشاطين، وما نوع التجمعات التي تأسست، ماذا كانت اهدافها، عضويتها، بنيتها واساليبها في العمل. كذلك لا نعرف كثيراً عن العلاقات بين الجمعيات الخيرية النسائية التي بدأت تظهر في اواخر القرن التاسع عشر والجمعيات التي طالبت بحقوق النساء.

بالاضافة الى الشبكات النسوية بين القاهرة والاسكندرية ودمشق وبيروت وبغداد، راسلت الصحفيات منظمة «النساء والسلم» التي حثت النساء في كل انحاء العالم على استخدام قواهن ضد تصاعد التوتر وصناعة الاسلحة. قالت أن النساء هن أول وأكثر من تؤذيهن الحرب. وقد بذلت هذه الصحف جهوداً حقيقية كي تكسب النساء العربيات لقضية السلام. وليس أقل أهمية من ذلك أن أحد أهداف الكاتبات العربيات، حتى في هذه المرحلة المبكرة، كان هدم تنميط الغرب للنساء العربيات، وذلك بواسطة إقامة روابط أوثق بالنسويات الغربيات.

سنة ١٨٩٣ حضرت هنا كسباني كوراني (١٨٧٠–١٨٩٨) مؤتمراً دولياً في شيكاغو لتبادل الآراء حول الحركات النسائية